عبد الرحمن الناصر آخر الأمراء
وأول الخلفاء الأمويين في الأندلس
300-350هـ/912-962م

أ.بوخاري عمر، جامعة تيارت

مقدمة:

لمدة نصف قرن ونيف، والدولة الأموية تزحف نحو الأفول، وسحب الظلام الكثيف قد حجبت آفاق المستقبل السياسي في هذه الظروف المدلهمة بخطوب الحرب الأهلية ، والاغتيالات في دهاليز قصور الأسرة الحاكمة. برزت شخصية مميزة عاشت في قلب الأزمات، واكتوت بنارها لترشح لإنقاذ الأندلس وانتشالها من براثين التمزيق والانفلات، فوضع يده على ممكن دائها، وسار على نهج جده الأعلى عبد الرحمان الداخل، الذي وضع اللبنة الأولى للسيادة الأموية في تلك الربوع، والذّي أشاد صرحا كان منهارا، ولملم أطراف دولة كانت ممزقة وعليه فإنّ عبد الرحمان الناصر يعتبر بلا جدال المؤسس الثاني للدولة الأموية با الأندلس، بل أعاد إليها وشاحا طالما تاقت إليه ما يقرب من قرنين من الزمن والذّي أصبح حكرا على بني العباس. ألا وهو لقب الخلافة هذا، وتتمحور إشكالية الموضوع في الإجابة على التساؤلات التي تطرح نفسها بإلحاح، وفي مقدمتها.

ما هي الدوافع الحقيقية التي ساقت الشاب إلى سدة الحكم؟ ما هي الخطط السياسية والعسكرية التي انتهجها العاهل الأموي في القضاء على الفتن الداخلية؟ ما هي الظروف والأهداف وراء تحويل الإمارة إلى دار الخلافة؟ كيف تسنى لهذا الخليفة تطبيق خطة سياسية وحربية في صد دولة الفاطميين التي فرضت سيطرة شبه كاملة على المغرب العربي؟

عبد الرحمان وظروف توليه الحكم:

هو عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمان الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان[1] بن الحكم الأموي وأمه أم ولد تسمى

مزنة وكان عمره لما قتل أبوه عشرين يوما[2] تولى مقاليد الحكم في اليوم الذّي توفي فيه جده الأمير عبد الله، وذلك يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة 300هـ/912م وهو ابن ثلاثة وعشرين وخمسة أشهر وعشرين يوما وتكنى بأبي المطرف[3]، وفيها يقول ابن عبد ربه الأندلسي:

بدا الهلال جديدا والملك غض جديد
يا نعمة الله زيدي ما كان فيه مزيد
كان للصوم فطر فأنت للدهر عيد[4]

وقصة عبد الرحمان الناصر التي ساقته إلى هذا الأمر الجلل، لم تكن خالية من الصدفة أو هي من المستطرف كما جاء في الكثير من المصادر، ونحن نعتقد أنّ يد القدر كانت تنسج خيوط هذه القصة. تعود في اعتقادي حيثياتها التي أسالت حبر الكثير من جهابذة التاريخ إلى المنافسة بين الأخوين (محمد والمطرف) هذا الأخير الذّي أوغل صدر أبيه بكثرة سعاياته[5] وإلصاق تهمة غريبة، استحكمت حلقاتها، وانتهت بتصفية الابن محمد بموافقة الأب[6] ذكر هذا ابن الأثير وابن سعيد في الحلى.[7]

وأومأ ابن عذاري إلى هذا بقوله: "وقيل في ذلك كلام كثير" ويكتفي ابن الخطيب "بسجن الأب لابنه محمد". فابن الأثير يؤكد على أنّه "قتله في حد من حدود الله". والنويري في نهاية الأرب، يورد لنا هذه الفرضية، في حوار دار بين الأمير عبد الله وابنه المطرف قائلا: "قد سوغتك قتل أخيك، فا الله في ابن أمية –يعني وزيره– فإنّك إن قتلته قتلتك"[8].

وهنالك مصادر أخرى ضربت الذكرى صفحا، لما في ذلك من التباس، وإثارة تساؤلات لا طائل وراءها، كابن عبد ربه الذّي عاصر هذه الأحداث. وهنا تجدر الإشارة إلى أمر في غاية الأهمية، وهو أنه لو أخذنا جدلا بهذا الرأي. أي قتل الأمير محمد بن عبد الله بموافقة الأب، لا أنزل الأمير عبد الله عقوبة مماثلة بابنه المطرف. ثم إنّ هناك عدة فرضيات تبرئ ساحة الأمير عبد الله من تورطه في مؤامرة قتل الأمير محمد. **الفرضية الأولى:** حبسه في بعض حجر القصر [9] وليس في غياهب السجن. **الفرضية الثانية:** قتله للمطرف شر قتلة[10] بعد تورط هذا الأخير في قتل الوزير عبد الملك بن أمية انتقاما لمقتل ابنه محمد. **الفرضية الثالثة:** حزنه الشديد على ابنه محمد جعله يميز حفيده من دون ابنائه وأخ انبرى عبد الرحمان الناصر إلى هذا الأمر الجلل في ظروف مضطربة، إكتنفتها القلاقل والتراعات، وكان الوضع إذاك ينذر بفتنة عارمة. يقول صاحب العقد: "فتولى الملك والأرض جمرة

تحتدم، ونار تضطرم، وشقاق ونفاق"[11] وكان الخلاف قد عم أقطار الأندلس، واستشرى في جيوبها ووهادها، فبرز أهل النفاق واستولوا على كورها.[12]

وفي هذا الشأن يقول ابن عبد ربه الأندلسي في أرجوزته[13]:

ونحن في الحنادس[14] كالليل وفتنه مثل غثاء السيل

حتّى تولى عابد الرحمان ذاك الأغر[15] من بني مروان[16]

وجاء في خطبة المنذر بن سعيد[17]: "ناشدتكم يا معشر الملأ ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها، والسبل مخوفة فأمّنها. والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ،ألم تكن البلاد خرابا فعمرها و ثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها فاذكروا ألاء الله عليكم بخلافته"[18] وإنّ وضعا كهذا، جعل الإمارة الأموية تمر بوضع صعب وخطير، عجزت معه كل محاولة لردع الثائرين والمغرين الذّين وصلت تهديداتهم إلى أطراف العاصمة قرطبة، بعد أن حدقت بها المخاطر من كل الجهات، الأمر الذي أعطى التحديات الخارجية فرصة المناورة لتحقيق ما كانت تنوي تنفيذه من توسيع أرجائها على حساب الأراضي الإسلامية والشروع في تطبيق سياسة الاسترداد. فكان عبد الرحمان بن محمد هو أقرب الشخصيات لهذه المهمة وهو الشخص الذّي يقدر السلطة التي أصبحت بين يديه[19]. وعندما بويع بالخلافة، لم يعترض معترض، بالرغم من بالحضرة جماعة أكابر وأعيان من أعمامه وأعمام أبيه وذوي القعدد في النسب.[20]

سياسته الداخلية:

الحملات الأولى ضد الثائرين:

اقتضت سياسة عبد الرحمان الناصر الداخلية، إتجاه الثائرين، أن يعمد إلى استعمال الثورة وشن الحملات العسكرية على الثائرين وتوجيه أقصى الضربات الموجعة واستئصال شأفتهم. لقد رفع كثير من الثائرين، من البربر والمولدين راية العصيان والتمرد، وجهروا بها في كثير من المدن، مثل جيان[21] التي إستقل بها موسى بن ذي النون وببشتر[22] معقل أسرة ابن حفصون المولدة، وإشبيلية[23] مقر حكومة بني الحجاج، وبطليوس[24] التي تحصن فيها عبد الرحمان بن مروان الجليقي، وباجة[25] معقله عبد الرحمان بن سعيد بن مالك.

كانت أخطر المشاكل التي أقضت مضاجع الأمويين، هي مشكلة ابن حفصون[26] اعتبرها عبد الرحمان الناصر أم المشاكل الداخلية فتصدى لها بذكاء، تجلى في محاولة عزله وتجريده من

حلفاءه، فهاجم هؤلاء في معاقلهم. ففي شعبان سنة 300هـ/913م خرج للغزو وتولى القيادة بنفسه. ولعل ظهور الأمير عبد الرحمان في مقدمة صفوف بثّ في جيشه الحماسة وروح الاندفاع[27] فتوجه عبد الرحمان الناصر نحو الجنوب الشرقي نحو كورة البيرة فافتحها، وتداعت حصون تاجلة، وبسطة، ومربيط، والبراجلة، وضبط هذه المعاقل بإحكام[28] وكانت أول غزوة غزاها[29] ثم اتجه جنوب كورة جيان وسط الأندلس التي احتدمت فيها الثورة، حيث كان ابن حفصون أخطر زعماء الخوارج الذّين شقوا عصا الطاعة على الأسرة الحاكمة من الأمويين، ببسط سلطانه على طائفة من الحصون المنيعة. وفي هذه الأثناء سيّر عبد الرحمان بعضا من قواته إلى مالقة[30] لإنجادها فا ستولى عليها وأمنها[31] وهو حصن شبليس في وادي آش[32] وتسلل عمر بن حفصون هاربا باتجاه قلعة ببشتر وقد ذهل من هذا الانتشار الأموي الأسرع. وتفاديا لإجهاد الجيش، يمم الناصر نحو قرطبة التي وصلها في عيد الأضحى بعد أن قضى ثلاثة أشهر، وبلغ ما استولى عليه في تلك الغزوة من الحصون ما يقرب من سبعين حصنا من أمهات المعاقل.[33]

إعلانه الخلافة:

امتدّ حكم عبد الرحمان الناصر على مدة نصف قرن من الزمن 300هـ-350هـ وبذلك تعد أطول ملوك الإسلام قبله مدة وزمانا، سوى أحد ملوك الدولة العبيدية، وهو المنتصر بالله أبا تميم علي الظاهر بن الحكم الذّي بلغت ولايته ستين سنة وأشهر[34]. وانقسم عهده إلى مرحلتين، السنوات الستة عشر التي تتوج بها عهد الإمارة، وما بقي من عهده يمثل العهد الجديد وعهد الخلافة[35] في أواخر سنة 316هـ/929م أقدم عبد الرحمان الناصر على أخطر قرار توجس منه أسلافه.

وعلى الرغم من أنّ مملكتهم استطاعت أن تبلغ شأوا بعيدا من القوة والأتساع، فإن أمراءها لم يجرؤا على الإقدام في منافسة الدولة العباسية في ألقاب الخلافة لأنهم كانوا يرون أنّ الخلافة لمن بيده مقاليد الحرمين، وهي تراث لأهل البيت الذّي يرى آل العباس أحد فروعهم، ولكن التطورات التي حصلت في العالم الإسلامي وخاصة في القرن الرابع الهجري جعلت عبد الرحمان الناصر يقدم على هذا القرار[36]، حيث نفذ ذلك بأمر أصدره في ذي الحجة سنة 316هـ/929م[37]، وأمر بأن تكون الدعوة في مخاطبته، والدعاء له على المنابر، بأمير المؤمنين لما استحقه من هذا الاسم الذّي هو له بالحقيقة ولغيره با الانتحال والاستعارة[38] وأصدر قرارا إلى عماله في جميع الأقاليم وعهد إلى أحمد

بن بقي القاضي صاحب الصلاة بقرطبة بأن تكون الخطبة يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة 316هـ وهو تلقيب نفسه بلقبين الأول، لقب الخليفة، والثاني لقب أمير المؤمنين وأضاف إلى لقب الشرفي الناصر لدين الله[39]. وهو أول من تلقب بأمير المؤمنين ببلاد الأندلس وكانوا من قبله يسمون ببني الخلائف[40].

وعليه فإنّ عبد الرحمان الناصر، يكون بهذا العمل قد أقدم على أمر خطير، كما أسلفنا وشذ عن القاعدة وعن الأصل النظري للمذهب السني للخلافة، الذي يعتبر الخلافة كمؤسسة دينية ودنيوية، لا يجوز أن تتجزأ، ولكن حدت به جسارته إلى وضع هذه المسألة موضع الاجتهاد، وأجاز فقهاء السنة بتعدد الخلافة في حال وجود مصلحة عامة للمسلمين وأقروا بمشروعية وجود إمامين يتوليان حكم المسلمين في وقت واحد شرط أن تكون المسافة بعيدة حتى لا يحدث التصادم بينهما[41]. وإقناعا للرأي العام استند عبد الرحمان الناصر بذكائه وعبقريته إلى الخصوصية التي تستند إليها الخلافة العباسية التي تقوم على أساس التفويض الإلهي، أمّا النظرية الفاطمية الشيعية في الحكم فتستند إلى عصمة الإمام، أمّا الخليفة الأموي فهو إنسان عادي قد يخطئ وقد يصيب وهو معرض للنقد من قبل العامة[42]. لكن نظام الخلافة الأموية في الأندلس هو نظام ملك يقوم على التوريث، ويستند على السياسة ثمّ إلى الدين، فهو بذلك يختلف عن الخلافة الراشدة القائمة أساسا على الشورى والانتخاب[43]. وكان عبد الرحمان نفسه خليفة وأميرا للمؤمنين في منشور رسمي صدر في ذي الحجة 316هـ أوائل يناير سنة 929 وخطب له في المنابر، وامتد بذلك عصر الخلافة قرنا كاملا حتى 422هـ/1031.

سياسته الخارجية:

المد الفاطمي في المغرب الأقصى والنزاع مع الفاطميين:

وقع النفور الشديد في أول الأمر بين الفاطميين والأندلسيين، وتوجس كل منهما خيفة من الآخر، وتميزت العلاقة بينهما بالشك والحذر والحيطة. ولما كانت الدولتان على عداء في البر، كنتا في البحر أيضا[44]. لم يتوقف الامتداد الفاطمي في الشمال الشرقي لإفريقيا بعد الإستلاء على القيروان والقضاء على الدولة الأغلبية فحسب، بل اعتبر الجزء الغربي أو المغرب مجالا حيويا ورقعة انطلاق للوثوب على الأندلس[45] فعمدوا إلى تسرب الدعاة بهدف نشر المذهب الشيعي وجذب

المسلمين إلى الدعوة الفاطمية ليحققوا بذلك ظاهرة التكامل المذهبي والسياسي ربين شطري العدوة المغربية والأندلسية.

ورغم الجهود التي بذلها الفاطميون في محاولة إخضاع المغرب لسيطرتهم إلاّ أنّهم تلقوا مجابهة عنيدة. وذلك لدخول موسى بن مكناس زعيم الأدارسة[46] في مدينة فاس ومحمد بن خزر الزناتي في طاعة عبد الرحمان الناصر. ورغم إنشغال عبد الرحمان الناصر في محاولة إرساء دعائم الجبهة الداخلية والعمل على تماسكها، لم يغفل عن الخطر الفاطمي الذّين بسطوا دعوتهم في المغرب[47]. بل كان يتتبع في تيقظ جميع حركاتهم مذهبيا وعسكريا فا ضطر إلى المجابهة بساسية حازمة هذا الخطر[48] إنطلاقا من الإستراتجية التالية:

تلقب بألقاب الخلافة عام 317هـ/ 924م وتوسيع هيبة الحكومة الأموية في العدوتين.

تأجج نار الفتنة بين القبائل البربرية، واحتلال الثغور المغربية المطلة على المضيق كمدينة مليلية[49] Malilla التي احتلها سنة 314هـ/927م ومدينتي سبتة وطنجة سنة 319هـ/993م التي عزم على جعلها قاعدة انطلاقه للسيطرة على بلاد المغرب الأقصى[50] ومحاولته احتلال موقع هام قرب مدينة تلمسان وهي مدينة أرشقول وتسمى حاليا Rachgoun[51] ولم يلبث أمراء القبائل في المغرب أن طلبوا دعمه بعد أن آنسوا فيه القدرة على المجابهة وتقديم الدعم[52] وأطاعه بنو إدريس أمراء العدوة وملوك زناتة. يقول صاحب كتاب مفاخر البربر: "...وتخطاهم عبد الرحمان إلى من خلفهم من زعماء قبائل البربر يستألفهم ويحمل أهل الطاعة على أهل المعصية منهم، مسدا لمن عجز برجاله، مقويا لمن ضعف بماله متفقدا لهم في سائر الحالات بألطافه، متعهدا بوجوه رسله وخواصه إلى أن تميز أكثر بوادي زناتة في حزبه وأرتسموا بطاعته، ولاسيما عند اجتياز "إمتيان" أضدادهم صنهاجة في حزب أعدائه بني عبيد الله"[53].

كما اهتم بتقوية البحرية الأندلسية، وتكوين أسطول أندلسي ضخم يجابه به سلطان الفاطميين في البحر المتوسط، ويذكر ابن خلدون أنّ أسطول عبد الرحمان الناصر انتهى في أيامه إلى نحو مائتي مركب[54]. ومن هنا يعتبر عبد الرحمان الناصر واضع الأسس الأولى للصناعة البحرية، بحكم موقع شبه الجزيرة المحاطة بالمياه حيث هي تطل على واجهة بحرية واسعة على المحيط الأطلسي، وعلى حوض البحر المتوسط لذلك نشطت حركة الإنشاء، وصناعة السفن إلى حد إنشاء عددا كبيرا من حيث تحالف سنة 344هـ مع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن دور الصناعة في مدن

الأندلس، مثل: المرية، وطرطوشة والجزيرة الخضراء ومالقة وغيرها[55]. يقول ابن حيان: "...وفيها أغزى الناصر لدين الله الأسطول إلى أرض العدوة في أتم عدد وعدة وأكمل عتاد وآلة، وكان أفخم أسطول أجراه ملك، وقر عليه نظره ووكل به عزمه، وتكاملت قطعة وتواترت عدده وتكاثفت ركابه وعلا ذكره عند أهل العدوة ورعبوا له..."[56].

ولم تتوقف سياسة الناصر عند هذا الحد، بل راح يوسع دائرة التطويق لمحاصرة الفاطميين بالتحالف مع ملوك أوربا والشرق الذّي كان ببروفانس الذّي كان يرغب في استرجاع صقلية من أيدي الفاطميين[57] وملك إيطاليا هو جوذي بروفانس الذّي كان يريد الانتقام من الفاطميين بسبب تخريبهم لميناء جنوة[58] وللإشارة فإنّ المصادر الإسماعلية تؤكد التعاون الفعلي. وهذا ما يؤكده القاضي النعمان بقوله: "وكتب الناصر إلى طاغية الروم يسأله النصرة، وأهدى إليه هدايا، وأرسل إليه رسلا من قبلفأجابه إلى ذلك وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية، ومراكب بني أمية من الأندلس[59] وعلى العكس تماما من المصادر الأندلسية التي تفصل في تلك المعاهدات المبرمة[60].

المواجهة بين الفاطميين والأمويين:

لم تبق الحرب بين الفاطميين والأمويين مجرد حرب كلامية، والاستعدادات وتهديدات فقط بل تحولت إلى مواجهات مسلحة ففي سنة 344هـ/955 م هاجمت بعض سفن الفاطميين ثغر المرية وأحرقت ما فيه من مراكب. يقول القاضي النعمان: "غزا المعز بني أمية با الأندلس فأحرق أساطيلهم ودار صناعة مراكبهم وأحتوى على المرية وما فيها بعد قليل المراكب أخرجها لأمر تعدوا فيه وجاروا في البحر إلى المشرق من غير أمره"[61] .فردّ الناصر بإرسال قوة بحرية إلى شواطئ إفريقيا مثل سوسة[62] وطبرقة[63] ومرسى الخزر[64] وأنزل بها الخراب، وأضرم النار في بعض نواحيها[65].

وفي هذه الأثناء والحرب مشتعلة أمر الناصر بلعن الخليفة الفاطمي من على المنابر ببلاد الأندلس[66] وهكذا ظلت الحروب سجالا بين الأمويين والفاطميين في الوقت الذّي كان الأمويين يعملون على إثارة البربر ضد الفاطميين عن طريق جواسيسهم وجاليتهم الأندلسية المنتشرة على الساحل الغربي[67]. وعندما أيقن الفاطميون أنّ المواجهة مع الأمويين في الأندلس، أصبحت ضربا من العبث وأنّ أرض الأندلس لا تصلح لبذر الدعوة الفاطمية. كما أيقنوا أنّ بقاءهم بالمغرب قد يعجل بالإطاحة بكيان دولتهم فولوا وجوههم شطر مصر أين نجحوا في بعث الخلافة الفاطمية على أنقاض دولة الإخشيديين، ونقلوا عاصمتهم من المهدية إلى القاهرة.

مع المماليك الإسبانية في الشمال:

قبل أن نقف على العلاقات العدائية بين الخلافة الأموية في الأندلس وبين جيرانها الإسبان في منطقة الشمال، يجدر بنا العودة إلى بدايات الفتح التي امتدت إلى أقصى الشمال الغربي تلاحق فلول النصارى التي توزعت في إقليم جليقية أو غاليسيا. هذا الإقليم الذي يوجد به كهف (أونجا) Cova donga أو صخرة بلاي. الذّي لجأت إليه شرذمة قليلة يقودها رجل يدعى (بلاي) pelayo. حيث زهد المسلمون في ملاحقتهم قائلين: "ثلاثون علجا ما عسى أن يجيئ منهم"[68] إذن من هذا المكان إنطلقت نواة الحركة المقاومة للوجود العربي في الأندلس.

ومنذئذ أخذت هذه الحركة في النمو والتوطد تراقب عن كثب ما يجري داخل الأندلس، وكانت تنسب وقتئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين هما ليون (جليقة) وكان على عرشها أردونيو الثاني Ordonio ومملكة نافار (نبرة أو بلاد البشنكس وعلى رأسها شنجة الأول (سانشو) Sengha.[69]

وفي غمرة الأحداث التي عاشتها الأندلس داخليا، ونعني إنشغال عبد الرحمان الناصر بالقضاء على الإمارات المستقلة، وجيوب المناوئين. شن ملك ليون أول حملة عسكرية على غربي الأندلس 301هـ/913م حتى وصلت قواته إلى مدينة يابرة[70] فدخلها عنوة وقتل عددا كبيرا، وأسر كثيرا من سكانها وأطفالها، فعاث منها فسادا، وأصبح جيشه مطلق التصرف في المدينة، وأستشهد في هذه الموقعة أحد الزعماء المنفاتحين عنها مروان بن عبد الملك عامل المدينة، وكانت هذه الموقعة أحد أشنع المحن التي نزلت بالمسلمين، وعاد أردونيوا أدراجه مكتفيا بما حققه من دمار وخراب وما يعلل عدم الإستحواذ. والإعمار هو عدم وجود الطاقة البشرية المكانية.

وفي سنة 305هـ/916م شن أردونيوا عملية عسكرية على ماردة في الوقت الذّي كان عبد الرحمان لايزال غارقا في همومه الداخلية. لكنه وجد نفسه مضطرا أمام هجمات الإسبان المتكررة من التصدي لها فوجد جيشا بقيادة أحمد بن أبي عبدة الذّي لم يستطع الصمود أمام جيش أردونيو المنظم، فا نفرطت عرى التلاحم بين جيش الناصر أمام ضربات جيش أردونيوا المتماسك، وتراجعت فلول الجيش تتهيأ للفرار، وثبت القائد أبي عبدة مع ثلة قليلة من المقاتلين الأشاوس حتى استشهدوا جميعا[71]. وما إن حلت سنة 308هـ/920م، حتى زحف الناصر بجيش قوي نحو جيلقية، وأقتحم

الناصر أهم المعاقل وراح يدك حصونها بالرغم من استنجاد أودونيو بشانجية غريسة ملك البشنكس[72].

ولم يقتصر استفزاز المسلمين على الناحية الشمالية الغربية فحسب بل كان لمملكة (نافار) نصيبها في هذه الحرب المعلنة والاسترجاعية يتزعمها نفرممن امتلات صدورهم وحلوقتهم بمرارة الهزائم والأحقاد منذ أن وطئت أقدام المسلمين هذه الربوع. ومن هؤلاء سنجة حيث في سنة311هـ/923م قام بأول عملية عسكرية على موقع الأمويين في الشمال الشرقي, وأعمل السيف في سكان المناطق وأوقع بها مذبحة وحشية اتسمت بالحقد والتشفي .

العلاقة مع الدولة البيزنطية:

عاشت الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور قسطنطين السابع 332هـ-348هـ/944م-959 أبهى عصورها حيث تمتعت في ظل الأسرة الحاكمة با القوة والازدهار الاقتصادي، والثقافي، والعسكري، وعاشت في فنك في منئ عن التحالفات التي كانت تمليها الظروف في تلك المرحلة. ولجأت إلى العلاقات السياسية الجيدة مع سائر الدول الأجنبية[73] ومنها الدولة الأموية في الأندلس.

لقد كان قسطنطين السابع شغوفا بالعلم وحريص على بعث النشاط الفكري في بلاده. بإصدار المؤلفات وتشجيع الآخرين على التأليف، وعلى هذا النهج سار خلفاء قرطبة بدءا من الناصر إذ الصداقة التي جمعت بين الناصر وقسطنطين السابع أذكتها شغافة لكل منهم بحب المعرفة والإطلاع بدليل أنّ الإمبراطور البيزنطي أهدى العاهل الأموي مخطوطين عظيمين، الأول في علم النبات لديسقوريوس با اللغة اليونانية والآخر في السيرة وأخبارالملوك القدماء لباولو أورسو المؤرخ الإسباني اللاتيني الذّي عاش في القرن الخامس الميلادي.

المنشآت العمرانية في عهد عبد الرحمان الناصر:

تشهد آثار الناصر الباقية بقرطبة، وآثار مساجدها وقصورها، المتهالكة بمدينة الزهراء، بما بلغته الحضارة العربية الإسلامية، وسؤددها وازدهارها حيث يعبر عبد الرحمان الناصر عن ذلك أصدق تعبير:

همم الوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا، وكم ملك محاه حوادث الأزمان؟

إنّ البناء إذا تعظم قدره أضحى يدل على عظيم الشان

شهدت الحركة العمرانية في عهد عبد الرحمان الناصر بأبعاد وانعكاساتها مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي والعالمي، حيث أصبحت مدينة قرطبة الفتية تضاهي العواصم العربية العتيقة (بغداد، القاهرة، ودمشق) وغدت تستقطب آلاف من البشر وهو من ذوي الحاجات الثقافية والعلمية، وازدحمت بآلاف المنازل المتقنة البناء والقصور وعشرات الفنادق والحمامات[75]. يقول ابن عذاري: "إنّ الناصر قد أسس الأسوس وغرس الغروس، وأتخذ المصانع قصور"[76].

وفي بداية 329هـ/940م أكمل الناصر بناء القناة الغربية الصنعة التي يجري منها الماء العذب من عيون جبال قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة، ويجري ماؤها بشكل عجيب إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة مطلي بالذهب وعيناه جوهرتان لهما تلألؤا شديدا[77]. ومن الآثار المنضوية، التي احتفظت بها أمهات الكتب، وسجلتها أقلام وأطنبت في ذكرها، وجعلتها مرادفة لمآثر الناصر، وهي مدينة الزهراء التي بناها عبد الرحمان، استجابة لطلب جارية "الزهراء" هَامَ عبد الرحمان بحبها، يذكر ذلك المقري في النفح الطيب

خاتمة:

وأخيرا وفي نهاية هذا البحث، واستنتاجا لهذه الدراسة نخلص في النهاية إلى أنّ هذه الشخصية استطاعت أن تجلس على عرش أسلافها أطول مدة، وأن يجعل من الأندلس دولة شاع فيها الإسلام والأمن والازدهار تنعم بثراء لا حدود له، وقبل أن يستجمع أنفاسه شن حربا ناجحة ضد أعدائه، وضمن بقوة جيشه أمن حدوده وتجنب بمهارة التهديد الفاطمي حينما نقل ميدان الحرب إلى عقر دارهم وتحالف مع أعدائهم المحاذين لعدوته، وجعل من قرطبة عاصمة تزدهي على عواصم الدنيا، بما كانت تشعه من قيم الإسلام وفضائل المسلمين، كما جعل منها قبلة وملاذا للعلماء الذّين يبحثون عن الاستقرار.

كما كان عبد الرحمان الناصر أجرأ وأكرم من أنداده النصارى في مجال التسامح الديني إذ أجاز للنصارى واليهود ممارسة شعائرهم الدينية في الأندلس، فقرب اليهود وعينهم في المناصب المالية

في الوقت الذّي اتصف فيه النصارى با لتعصب الديني. واستلم الناصر لدين الله الحكم وخزانة بني أمية تكاد تكون فارغة ورحل عن الدنيا وخزانة المسلمين عامرة بمبلغ "ذو خمسة آلاف ألف ألف ثلاثة مرات" من الدنانير.

وعليه يمكن تصنيف حكم عبد الرحمان الناصر إلى ثلاثة مراحل متباينة: **الأولى**: المرحلة التي أشهر فيها سلمه ضد المناوئين والمعارضين في الداخل حيث فرض سلطته وفرض الأمن العام. **الثانية**: مرحلة الخلافة، التي عزز بها تنظيم البلاد وإظهار نفسه فيما وراء الحدود كعدو مهاب والذّي يصبح من التعقل التعامل معه بكل احترام. **الثالثة**: وهي المرحلة التي وصل بها العاهل الأموي إلى القفلة الأخير من نظام حكمه الذي أصبح لكل شئ تابعا له ويصبح القصر مركزا للحياة العامة، ويشتد نفوذ الحاشية وانبثاث هيبته عند جميع طبقات المجتمع هذا من ناحية، وقدر قيمة الحياة الإنسانية تقديرا، غير مبالغ فيه من خلال النبذة التي تركها بعد وفاته بخط يده، يقول فيها " أيام السرور التي صفت لي بدون تكدير في مدة سلطاني يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا" فعدت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يوما، فأعجب أيها العاقل لهذه الدنيا، وعدم صفائها وبخلها بكامل الأحوال لأوليائها.

إن الخليفة الناصر ملك خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام و لم يصف له من الدنيا إلا أربعة عشر يوما. فسبحان ذي العزة العالية والمملكة الباقية، تبارك اسمه وتعالى[79]. ومن مآثره لما كمل بنيان الزهراء وسكنها عبد الرحمان الناصر أخذه في بعض لياليه أرق وقلق، وجعل من مبانيه لا يستقر في مكان حتى انتهى به الطواف إلى شرفه العالية، فا ستلقى على ظهره فأخذته سنة من النوم فإذا بهاتف يقول:

يا صحب القصر العظيم الــذرى أسمع إلى وعض بحرفيـــــن
يوشك أن تنقــل منـــــه إلى أهوية في ضيق شبريـــــن

فاستوى جالسا وقال مجيبا له:

لو دامت الدنيا لمن قبلنـــــا لا دامت الدنيا لاثنيـــــن

أعني سليمان وذاك الـــــــــذي سد على يأجوج بابيـــــــن

الهوامش:

1. ابن الأبار أبو عبدالله القاضي، الحلة السيراء، تحقيق د.حسين مؤنس، دار المعارف، ج1 ص 198

2. ابن الأثير عز الدين أبي الحسن، الكامل في التاريخ، تحقيق الشيخ خليل شيحا، ج6، ص دار المعرفة، بيروت، لبنان.

3. الحميدي أبومحمد بن أبي نصر، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمان السويفي، دار الكتب العلمية، ص 18.

4. ابن عبد ربه أحمد بن محمد، العقد الفريد، تحقيق بركات يوسف هبود، دار اتلنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1999م، ج4، ص 469.

5. ابن خلدون عبد الرحمان، تاريخ العبر وديوانه المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيت الأفكار الدولية، ص 987.

6. ابن الأثير، المصدر السابق، ج8 ،ص 73.

7. ابن سعيد الغرناطي، أبي الحسن علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: د.شوقي ضيف، دار المعارف، ج1، ص 177.

8. النويري أحمد بن عبد الوهاب، نهاية في فنون الأدب، تحقيق د. مصطفى أبو ضيف، دار النشر العربية، الدار البيضاء، ص 114.

9. ابن خلدون، المصدر السابق، ص 988.

10. نفسه ،ص989

11. ابن عبد ربه أحمد بن محمد، كتاب العقد الفريد، تحقيق بركات يوسف هبود، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، 1999م، ج4، ص469

12. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب، مكتبة صادر، بيروت، ج2، ص 237.

13. أرجوزته: قصيدة مطولة ذكر فيها ابن عبد ربه جميع مغازي عبد الرحمان الناصر وما فتح الله عليه فيها من يوم امتلاكه عرش أجداده إلى وفاة الشاعر الأديب والمؤرخ.

14. الحنادس: الليل المظلم.

15. الأغر: الأبيض الوجه.

16. ابن عبد ربه، المصدر السابق، ج4، ص 472.

17. المنذر بن سعيد البلوطي، ولي قضاء بقرطبة أيام عبد الرحمان الناصر وأستمر في القضاء إلى وفاة الناصر ثم أقره ابنه الحكم المستنصر – أبي نصر الفتح بن خاقان مطمح الأنفس، ومسرح التأنس- مطبعة الجوانب، 1302 هـــ، ص 37.

18. ابن خاقان أبي نصر الفتح بن خاقان بن محمد بن عبد الله، ((مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في ملح أهل الأندلس))، مطبعة الجوانب، 1303 هـــ، ص 39.

19. حسين مؤنس، موسوعة تاريخ الأندلس ،مكتبة الثقافة الدينية، ص 272 – 310.

20. الحميدي، المصدر السابق، ص18.

21. جيان: مدينة با الأندلس كثيرة الخصب رخيصة الأسعار، جيان في سطح جبل عالي من غر المدن وشريف البقاع، محمد بن عبد المنعم الحميدي، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1984م، ص 183.

22. بيشر: من أمهات مدن الثغر الفائقة في الحصانة البائنة الإنفتاح، أبي عبيد البكري المسالك والممالك، ص 24.

23. إشبيلية: عروس مدائن الأندلس لأن عليها تاج الشريف وفي وسطها سمط النهر الأعظم، محمد أبي بكر الزهري، كتاب الجغرافية، ص85-88.

24. بطليوس: على النهر الأعظم بوادي يانة المنبعث من محصر الريح، محمد أبي بكر الزهري، المصدر نفسه.

25. باجة: من أقدم مدن الأندلس بينها وبين قرطبة مائة فرسخ وهي من كور المجندة نزلها جند مصر وكان لواؤهم في المسيرة بعد جند فلسطين وهم النازلون بشذونة وأسقط عبد الرحمان بن معاوية جندهم.

26. إبراهيم بيضون، الدولة العربية في إسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية، 1980 م، ص 301.

27. عبد الله عنان، المرجع السابق، ص:

28. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 242.

29. عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 377.

30. مالقة: مدينة حسنة حصينة ويعلوها جبل فارة ولها قصبة منيعة ومالقة قاعدة برية ومن مالقة قرطبة، أبي عبد الله محمد بن محمد بن أدريس الحمودي المعروف با الإدريسي، بيروت، 1979 م، ج2، ص:

31. ابن الخطيب، لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق د/ يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، مجلد ج3، ص 354.

32. وادي آش مدينة متوسطة المقدار لها أسوار ومكاسب مؤقتة ومياه متدفقة ولها نهر صغير دائم. أبي عبد الله ابن محمد إدريس الحمودي المعروف با لشريف الإدريسي، 1979 م، بيروت، ص 567.

33. عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 388.

34. ابن الآبار، المصدر السابق، ج1، ص 198.

35. د/ سلمى الخضراء جويسي، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ص86.

36. سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 315.

37. عبد الرحمان علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الأندلسي حتى فتح غرناطة، 92هـ / 897م، 711 م / 1492 م، دار القلم، دمشق، ص 301.

38. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص297.

39. سهيل طقوش، المرجع السابق، ص315

40. النويري، المصدر السابق، ص 115.

41. الفيلالي عبد العزيز، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م، ص147.

42. سهيل طقوش، المرجع السابق، ص317.

43. السيد مختار العبادي، المرجع السابق، ص380

44. د/ حسين مؤنس، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، دار المصرية اللبنانية، سنة 1993 م، ص 149.

45. المقريزي تقي الدين أحمد بن علي، إتعاض الحلفاء بأخبار الفاطميين الحنفاء، تحقيق د/ جمال الدين الشيال، القاهرة، 1997 م، ص376.

46. الأدارسة: بطن من بني الحسن سبط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من بني هاشم من العدنانية وهم بنو إدريس بن عبد الله بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين بن علي بن أبي طالب رضي الله عته.

47. بسام العسيلي، عبد الرحمان الناصر، دار النقاش، 1983م، ص126.

48. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، دار النهضة، 1981م، ج2، ص609.

49. عبد العزيز الفيلالي، المرجع السابق، ص 147- 148.

50. محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر الغربي، ص 220.

51. رشقون: كانت حصنا عامرا له مرسى وبادية وسعة في الأموال ومرساها في جزيرة فيها مياه ومراجل كثيرة للمراكب وهي جزيرة مسكونة، يصب بمحاذاتها نهر ملوية، ويسمى حاليا نهر تافنة. الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ج2، ص 534.

52. ابن الأثير، المصدر السابق، ج6، ص 306 – 310.

53. مجهول، مفاخر البربر، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، المغرب، 2005 م، ص94.

54. ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، دار العودة، بيروت ،

55. عبد العزيز سالم أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، 1989م.

56. ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص312 – 313.

57. محمد جمال الدين سرور، المرجع السابق، ص 221.

58. القاضي النعمان، المجالس والمسايرات، تحقيق: إبراهيم شتوح والحبيب الفقي محمد اليعلاوي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ص: 98 وص: 60.

59. محمد جمال الدين نفسه ص221

60. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص: 384.

61. القاضي النعمان، كتاب إفتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1986م.

62. سوسة: هي بلاد إفريقية وهي مدينة قديمة فيها آثار للأول، وهي على ساحل البحر وفيها بنيان عظيم يسمى الملعب. الحميري، المصدر السابق، ص 331.

63. مدينة قديمة فيها آثار كثيرة للأول وهي على نهر كبير بالقرب البحر تدخله السفن منها مدينة مرسى الخزر، احميري، نفسه، ص386

64. مرسى الخرز: هي مدينة الخرز المرجان وهو أجل مرجان يوجد بسائر الأقطار، قليل الزرع وربما جبل إليها من بونة، الحميري، نفسه، ص 538.

65. ابن خلدون، تاريخ، ج4، ص 136 -141. والمقري نفح الطيب، ج1، ص 129.

66. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص244.

67. إبراهيم أيوب، التاريخ الفاطمي السياسي، الشركة العالمية للكتاب، ص34.

68. إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص 308.

69. عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 391، إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص 309.

70. إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص 310.

71. ابن عذاري، المصدر السابق، ص 260- 266.

72. ابن خلدون، المصدر السابق، ص 990، المقري، المصدر السابق، ج1، ص363.

73. إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص 318.

74. د/ سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 340

75. إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص 298.

76. ابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص 333 وكذلك ابن الخطيب أعمال الأعمال، ص 29.

77. المقري، نفح الطيب، ج1، ص 564 – 565.

78. المقري، نفسه، ص 523 – 524

79. الحافظ محمد أيوب بن غالب الأندلسي. فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، مجلة المخطوطات العربية، 1955 م، ج2، ص 111.